شفيق مقار

وكذا تكلّم سولجنتسين !

« والعالم سوف ينقذه الجمال ! »

دستويفسكي

لنتحدث عن الفن :

في مدخل الكلمة المتوهجة التي القاها بمناسبة حصوله على جائزة نوبل للاديب ، عام ١٩٧٠ ، افاض سولجنتسين في الحديث عن الفن، وقال انه هبة اعطتنا اياها في غسق ما قبل فجر البشرية ، يدان لم نستطيع ان نبصرهما ، ولم تتح لنا الفرصة لنسالهما فيم اعطاؤنا هذه الهبة ؟ وكيف استخدامها ؟ » (١) .

غير اننا لا يجب ان نحزن لذلك . فالذي يبدو الان ،وسولجنتسين معنا . ان الفرصة التي لم نقتنمها ، اذ ذاك ، لم تضع تماما ، واننا ما زلنا قادرين على ان نطرح ذلك السؤال . بشقيه ، ونجد الجواب عليه ، بعد كل هذه السنين .

يقول سولجنتسين اننا اذ نمسك هبة الفن بين ايدينا . شاننا في ذلك شان ذلك المتوحش الذي يعثر على شيء لامع جميل، فيقف حائرا به ، يقلبه بين يديه ، عله يجد له منفعة تافهة ما، غير دار بقيمته ـ اننا ، مثل ذلك البدائي ، نحاول ان نسخّر تلك الهبة ، وبصفاقة نوجهها ، ونجددها ، ونصلحها ، ونبيعها بالمال ، ونتملق الاقوياء بها ، ونستعملها احيانا في الترفيه . بل وفي الاغاني الشعبية ، واستعراضات الكباريه ، كما نستخدمها ، في احيان اخرى ، « كسدّ خانة » ، او كسلاح يخدم احتياجات سياسية عابرة، او يشبع مطالب اجتماعية محدودة . غير ان الفن لا يكترث لنا، ولا يتلوث بمحاولاتنا ، ولا يفقد شيئا من عراقة اصله ، وكل ما في الامر ، انه ـ في كل مرة ـ وكيفما استخدمناه ، يمنحنا بعضا من سره الخاص به ، فيضفي علينا بعضا من نوره الداخلي (٢) .

وهذا كلام طيب وجميل ، وبطريقة ما يعيد الى الذهن محاولات تولستوي لتعريف الفن (٣) وقت ان كان في طريقه الى الاصابة بهوسه الديني . ولو ان سولجنتسين يتساءل (ولديه حق) « .. ولكن منذا الذي يجرؤ على القول بانه قد عرّف الفن،وعدد كل اوجهه العديدة ؟»(٤) حقيقة انه يقول ذلك ، لكن انظر ما يقوله فيما بعد .

ومن الان ، حتى لا نتوه وراء سولجنتسين ، ويتعبنا معه ، يحسن بنا ان نحتفظ ، على مرمى البصر ، بما يذكرنا دائما باوجه الشبه، وروابط القربى ، بينه وبين تولستوي ، سلفه الكبير .

يعقد سولجنتسين مقارنة بين نوعين من الفنانين يزودنا ،من خلالهما ، بمنظور مقبول ـ لديه ـ للفن ، فيقول هناك ذلك الفنان الذي يتخيل نفسه كخالق لعالم روحي مستقل ، ويحمل نفسه بعبء خلق ذلك العالم وتعميره ، متقبلا المسؤولية كاملة عنه . لكن ذلك الفنان ينهار (٥) ، لانه لا يوجد انسان فان ، مهما كان عبقريا ، يقدر على حمل ذلك العبء ، والفنان ، في ذلك ، مثل انسان العصر ، الذي اعلن انه مركز الكون ، وفشل في خلق نظام روحي متوازن لعالمه . والمحزن ان الفنان من هذا النوع ، متى امضه فشله ، ينحى باللوم على افتقار العالم الى الانسجام ، وتعقد الروح المعاصرة ، وتشتتها ، وافتقار الجمهور الى القدرة على الفهم .

وفي مقابل هذا الفنان نجد ذاك الذي يعرف ان هناك قوة عليا فوقه ، ويتقبل ذلك ، فيقبل على العمل فرحا كصبي صغير تحت التمرين ، وسماء الله فوقه ، مدركا ان هذا العالم ليس من صنعه، وانه ليس خاضعا لمشيئته ، وانه لا توجد اية شكوك حول اسسه الجوهرية (٦) .

وحتى نقف على مفهوم الفن عنده نلقي بالا الى اوجه الخلاف والاختلاف بين الفنان الاول ونقيضه . فالاول يجعل من نفسه خالقا، ويتحمل مسؤولية عالمه كاملة ، حتى وان انهار واصابه الجنون ، او امسك الرعب بتلابيبه ، تحت وطأة ذلك العبء . والذي يعنيه هذا الكلام ان ذلك الفنان يرفض العالم كما يجده ، ويتمرد عليه ،فيعيد خلقه في ابداعه الفني ، اي « يخلق عالما روحيا مستقلا » ، كما يقول سولجنتسين ، ويتحمل مسؤولية تمدده وتحديه ، والعالم الذي يبدعه ، كاملة . حتى وان جن . حتى وان مات . اما نقيضه ، فرغم « مسؤوليته الكاملة » ، التي يقول بها سولجنتسين ، « عن كل ما يصوره ويرسمه » « وعن الارواح التي تستوعب ما يصوّر » (وفي هذا التصوير للعالم كما هو يحل سولجنتسين مفهوم الصدق محل مفهوم الواقعية) ،نقول رغم تلك المسؤولية التي يراها سولجنتسين أعظم ، فان ذلك الفنان الاخير ، بكلماته هو ، ليست لديه الا هبة

A . Solzhenitsyn : « One Word of Thruth ..» The Nobel Speech - Bodley Head , Lodon , 1974 ,p . 5 (1)

(٢) نفس المرجع السابق ، وفيما يلي من هوامش سنشير اليه باسم « خطبة نوبل » ، ص ٣ .

(٣) في كتابه المشهور « What Is Art ? »

(٤) « خطبة نوبل » ، ص ٣ .

(٥) كما حدث لنيتشه ؟

(٦) نفس المرجع السابق ، ص ٤ .

الابصار بحدة اكثر من الاخرين : ابصار الانسجام الذي يتصف به العالم ، وما يتصف به اسهام الانسان في ذلك العالم من جمال وقبح، وفوق هبة الابصار الاكثر حدّة هذه ، هبة اخرى ، هي القدرة ،الاكثر حدة ، على توصيل ما يبصره الى الاخرين .والفرق هنا فرق بين الرفض والقبول ، بين التمرد والامتثال . فالاخير مدرك لان هذا عالم لم يصفه هو ، ولا يحتكم فيه ، (والاول ـ بغير شك ـ مدرك لذلك هو ايضا ، غير ان ادراكه لتلك الحقيقة لا يمنعه من الرفض والتطلع الى ما هو اجمل واكثر انسجاما ، ومن عظم شوقه يخلقه خلقا) لكن الاخير مسلّم بما يجد ، منطلق ـ اساسا ـ من الايمان « بالانسجام الجوهري » في العالم .. واما القبح والجمال (الخير والشر) فمن فعل الانسان في هذا الكون (٧) . وبهذه الدورة الجانبية المريحة نتجنب تلك المشكلة المعثرة ، ونتجنب اليأس ايضا . لانه كان الفشل ، ومهما نزل المرء الى حضيض الوجود ، ومهما عانى الفاقة ،والسجن ،والمرض ، لا يتخلى عنه ذلك « الوعي بالانسجام » الصامد الذي لا يتزعزع في الوجود . لا يتخلى عنه ايمانه .

الايمان بأن الله خير ، والعالم الذي خلقه خير .. ومحايد تماما . فهو عالم مقفل على كماله وانسجامه ، ويبدو كما لو لم يكن فيه مجال للانسان بما يقحمه عليه من شر ، لولا الفن الذي من خلاله يخلق الانسان الجمال . ولهذا فان الفن اهم من الانسان وابقى. وما اكذب اولئك الذين يتنبأون بأن الفن سينحط ، اذ يكون قد استنفد كل الاشكال الممكن تصورها ، ويموت . فالعكس صحيح .والفن سيبقى ونموت نحن . فهل ترانا سنقدر ، قبل ان نموت ، على فهم كل اوجهه العديدة ، وكل مراميه ؟ والذي يفعله الفن ، للعالم ولنا، من تلك الاشياء التي لا اسم لها ، « الاشياء التي تذهب الى ما وراء الكلمات » . فالفن يذيب صقيع الروح التي تجمدت واظلمت ، ويفتحها لخبرة روحية رفيعة . ومن خلال الفن تأتينا ، احيانا ،في ومضات خاطفة غير واضحة ، لحظات من الوحي والانكشاف لا سبيل للوصول اليها بالتفكير العقلاني . وقد سبق لكتاب اخرين ، اقربهم الى الذهن ديفيد هربرت لورنس ، ان قالوا بشيء كهذا .ويقول سولجنتسين ان الفن ، في ذلك ،« اشبه بتلك المرآة الصغيرة في الحكايات الخرافية ، التي تنظر فيها ، فلا ترى صورتك انت ، بل ، لمدى لحظة ، تلمح ما لا سبيل للوصول اليه او الامساك به، ذلك الذي لا يقدر على اخذك اليه حصان طائر ، او بساط سحري، ذلك الذي تتحرق الروح شوقا اليه ..» (٨) فنحن هنا ـ بعبارة غيبية بعض الشيء ، سحرية بعض الشيء ـ قد عدنا ، مرة اخرى، الى فكرة الفن المنقذ ، الفن المخلص .

وبم يخلصنا الفن ، وباي شيء ينقذنا ؟ بالجمال الذي يحاجي القبح (الشر) ويدحضه : « فهناك تلك الخاصية في جوهر الجمال ، في موقف الفن ، وهي ان العمل الفني بحق مقنع ، اقناعا كاملا لا يدحض . وحتى القلب الذي يقاومه ما يلبث ان يستسلم له .. فالعمل الفني يحمل في ذاته البرهان عليه » (٩) .

وذلك كلام جميل . وقد قيل قبلا . وقاله بالاخص تولستوي .غير ان المشكلة ، فيما يخصه هي : وما القول في العمل الفني بحق ، الذي يبدعه فنان شرير . كالمركيز د صاد او بودلير مثلا ؟ او حتى فنان خيّر ، كادجار آلان يو المسكين ، انشغل بمشكلة الشر حتى استوعب في رؤى العنف والموت والهول .نحن لا نختلف مع سولجنتسين او تولستوي حول فكرة الصدق الفني = الجمال . لكن تساؤلنا منصبّ على الموقف الذي يصدر عنه سولجنتسين . وهو موقف لاهوتي، في نظرته الى الصدق الفني، الجمال في عمل الفنان المنشغل بالشر والمعبّر عنه بصدق واقناع . هل نسلم بان ذلك ايضا ضرب من الجمال ام ، لانه لا يجد منفذا للقبول في ظل موقفنا الديني ، نرفضه ، ونناقض انفسنا ؟

والمشكلة ، كما تبدو لنا ، فيما يخص سولجنتسين ، هي ـ مرة اخرى ـ مشكلة العقائدية . الدوجماتية . الانحياز الى جانب والتجمد فيه . برخت فعل نفس الشيء من موقف مضاد (١٠) . وسولجنتسين يفعله الان في الطرف الاخر . وسنرى كيف .

من الموقف العقائديّ الضد المقابل لموقف برخت ، يوضح سولجنتسين ما اكده عشرات المرات كتّاب من مشارب مختلفة مثل كامي، وآرتو ، ويونسكو : يوضح التباين الجوهري بين الفن والكتابة التي ترمي الى الدفاع عن افكار مسبقة ، او الاقناع بعقائد سياسية، اجتماعية ، او فلسفية ، والبرهنة على صحتها ، والترويج لها ، فيقول انه بينما ينبع الفن الحق من نبع واحد هو الصدق ، تنبني تلك الكتابة على عرض من الانسجام الظاهري والتماسك والاتساق ، رغم ما قد تكون قائمة عليه ، معبّرة عنه ، من اكاذيب واخطاء ،فتخدع الناس ، وتستولي على عقولهم ، ولا ينكشف امرها الا عندما تواجهها كتابة اخرى تناقضها ، وتبدو متماسكة ، متسقة ، مقنعة مثلها ، ولا تقل عنها خطلا وكذبا . يقول سولجنتسين : « لا فائدة من تأكيد ما لا يؤمن القلب به » (١١) . ويقول ايضا : « ان المفاهيم المصطنعة (التي تقوم عليها تلك الكتابة) لا تستطيع ان تصمد لاختبار الفن (التعبير عنها في صور images) ولذا فانها تتفتت وتتهاوى، وينكشف سقمها ، وافتقارها الى اللون ، ولا تقنع احدا . اما تلك الاعمال التي تنهل من نبع الحقيقة ، وتقدم الينا في شكل مركّز حيّ ، فانها تأسرنا ، وتوصل انفسها الينا ، ولا يستطيع احد ، حتى بعد قرون ، ان يدحضها » (١٢) .

ومرة اخرى ، هذا كلام صادق وجميل ، ويعيد الى الذهن ما سبق ان قاله تولستوي عن عمومية الفن وديمومته من خلال ما فيه من صدق . لولا ان سولجنتسين ، وقد استوعب تماما ـ فيما يبدو ـ في معركته العقائدية ، يكاد يقنعنا بأن تباين الكتابة التي تصدر « عما يقوله القلب ويؤمن به » (كما قال الرومانسيون في القرن التاسع عشر) عن الكتابة التي تصدر عن الايمان بعقيدة سياسية او اجتماعية معينة هو المصدر الوحيد والمعيار الوحيد للصدق ، وبالتالي ، لكون العمل عملا فنيا على الاطلاق . وهو بذلك يضع نفسه على الوجه الاخر من العملة ، وعلى الوجه الاول كتّاب من امثال برخت وبسكانور ، يقولون ان الفن لا يكون فنا الا اذا رفع السلاح في خدمة عقيدة سياسية .

وسولجنتسين نفسه واع بما يثيره موقفه من تساؤل ، لانه ما يلبث ان يطرح السؤال ، بالصيغة التالية :« هل ينبغي للفن والفنان ان يذهبا في طريقهما ، ام ينبغي لهما ان يضعا نصب اعينهما باستمرار واجبهما تجاه المجتمع ، ويجعلا عملهما مفيدا له ، وان كان ذلك بغير انحياز ؟» (١٣) ويجيب على السؤال بقوله : « دعونا نسلم بان الفنان ليس مدينا بشيء لاحد : ومع ذلك فانه مما يؤذي ان نجده قادرا على الانسحاب الى عوالم من خلقه ، او الى براري النزوات

---

(٧) وفلسفيا ، بهذه الفكرة عن مسؤولية الانسان عن الجمال والقبح في العالم بفعله ، يجعل سولجنتسين الانسان مركزا للكون ـ بل ومتحملا لبعض مسؤولية الخالق.

(٨) « خطبة نوبل » ص ٥

(٩) نفس المرجع السابق ،ص ٦ .

(١٠) نفس المرجع ، ص ١٦ .

(١١) « خطبة نوبل » ص ٦ .

(١٢) ارجع الى دراستنا المطولة عنه بكتابنا « دراسات في الادب الاوربي المعاصر » ، بغداد ، ١٩٧٢ ، ص ص ـ ١١١ ـ ٢٣٨ .

(٢)١ نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(١٣) نفس المرجع ، ص ١٦ .

الذاتية ، تاركا عالم الواقع ، بذلك ، نهبا للماجورين ، والتافهين، والمجانين . ان هذا القرن العشرين الذي نعيش فيه قد تبين انه اشد قسوة من القرون التي سبقته ..»

فهو ـ بايجاز ـ ليس هروبيا ، وليس انعزاليا . ورغم ازدرائه « لفن القضية » (L'art à thèse) ليس دون النضالية .. كل ما في الامر انه ، على النقيض من النضاليين الملتزمين كتاب فن القضية الذين الفناهم من عالمه حتى الان ، يضع نضاليته والتزامه ضد القضية (الماركسية) في جانب قضية اخرى ، كما سنرى .

ونتحدث عن العدل والاخلاق

ان كان الصدق عند هذا الكاتب نبع كل فن ، وقد رأينا انه ، قرينا لواقعية الملتزمين، صدق ملتزم بدوره ، وان كان متخذا موقفه في الجانب الاخر من الساحة ، نقول ان كان الصدق نبع الفن ،عنده، فالعدل موضوعه الاول والاثير .

في الجزء السابع من كتابه الذي جعله بطلا في الغرب ، وطرد بسببه من بلاده ، « ارخبيل المعتقلات » ،يقول سولجنتسين :

« ان القانون في بلادي قوي ، ومخاتل ، ولا يشبه شيئا مما يطلق عليه اسم القانون في اي مكان على ظهر البسيطة .. ورغم ذلك فانه ينسى تماما تلك الخطيئة التي اسمها « الشهادة الزور »، بل وانه ، عامة ، لا يعتبرها ذنبا يعاقب مرتكبه . فما اكثر شهود الزور الذين تروج احوالهم بين ظهرانينا ، ويتقدمون بخطى وئيدة نحو شيخوخة مبجلة ، ينعمون فيها باحترام الجميع ، ويستدفئون بالشمس الغاربة لخنام ايامهم . وبلدنا ، روسيا ، البلد الوحيد في العالم ، وفي التاريخ كله ، الذي يدلل شهود الزور، وينعم عليهم ، ويرعاهم .

« وبالمثل ، يقصر قانوننا عن القصاص من القضاة ـ القتلة ، والمدعين ـ القتلة . فكلهم يظلون في وظائفهم ، ويكرّمهم المجتمع ، لسنوات عديدة ، يسيرون بعدها ، رافعي الرأس ، الى اخريات ايامهم، وقد قاموا بالواجب خير قيام .

« نحن ـ ببساطة ـ شعب يحوطه حائط ضرب آجره من الاكاذيب، وعجن ملاطه بالباطل .. »

وفي خطبة جائزة نوبل ، يقول سولجنتسين انه معتنق لاراء كامي، الذي كان العدل ، كقيمة اخلاقية ، وكطريقة حياة ، شاغلا اساسيا له ، وقضية جوهرية في اعماله .

وفي حيثيات منحه جائزة نوبل تؤكد الاكاديمية السويدية على « الموقف الاخلاقي الراسخ الذي واصل من خلاله التقاليد العريقة التي لا تحد للادب الروسي » .

فاي رجل هو اذن ذلك الرجل العادل ، المنادي بالصدق ،وما قيمته ، وما الذي يبحث عنه ، وماذا يريد ؟

لنصرف نظرا عن الهالة التي البسته اياها صحف الغرب واجهزة الاعلام به ، فهي هالة مشبوهة ، ومعوّجة بعض الشيء فوق راسه (لانها مفروضة) تماما كعباءة الشيطان التي ظلوا يحاولون ان يلبسوه اياها في وطنه ، طوال عشر سنين او اكثر . ولنلق بالا الى هذه الكلمات التي وردت على لسان احدى شخصياته في رواية « الدائرة الاولى » :

« ان وجود كاتب عظيم في بلد ما اشبه بوجود حكومة اخرى (منافسة) في ذلك البلد » .

فلعل هذه الكلمات تكون مدخلنا الى جواب ما نسال عنه . ففي هذا العصر الذي تميز بتضخم الانظمة الحاكمة والايديولوجيات الكلية التي تقوم عليها ، حيثما كانت : وايا كان لونها ، لتبيت اشبه باورام سرطانية خبيثة تقتات على الجسد الحي الذي تعيش عليه، وعلى مهل تشوهه ، وتستنزفه ، وتميته ،في هذا العصر الذي تسخر فيه النظم اخر ما وصل اليه العلم من كشوف في تطويع الروح البشرية، وطمس العقل وقطع الطرق عليه ، وتستخدم احدث تطبيقات العلوم الانسانية والطبيعية (جنبا الى جنب مع مذهب الغاية تبرر كل وسيلة) في ايذاء النفس والجسد وتعذيبهما واذلالهما ، في عصر كهذا اي جنون ذاك الذي يدفع فردا وحيدا ضئيلا منعزلا الى حيث يقف منتصب القامة امام تلك الهولات المعاصرة ، ليقول لها « لا » ، ويجعل من نفسه حكومة اخرى منافسة في تلك الحلبة الكلبية الميتة ؟ اسمع للرجل وهو يقول في رسالته الى زعماء الاتحاد السوفياتي :

« ولقد لاحظتم ، بطبيعة الحال ، ان رسالتي هذه لا تسعى وراء غايات شخصية . فانا ـ من وقت طويل ـ قد خرجت من صدفتكم، وسوف تنشر كتاباتي بصرف النظر عن اية عقوبة توقعونها او حظر تفرضونه . وكل ما كنت اريد قوله قد قلته الان . وانا ايضا في الخامسة والخمسين ، واظنني قد اثبت بما فيه الكفاية اني لا اقيم وزنا للثراء المادي ، واني على استعداد للتضحية بحياتي » (١٤) .

فهل هو ضرب من الدون كيخوتية ومناطحة طواحين الهواء ، او النرجسية ، او الاستعراضية ، او ضرب من الجنون ؟ في حالة سولجنتسين ؟ بالقطع لا . ولندع البطولات جانبا ، رغم قوله انه على استعداد للتضحية بحياته ، فالبطولات ـ من جانب ـ اشياء راح زمانها ، كما ولى زمان الخوارق والمعجزات ، ولم يعد يؤمن بها احد او يصدقها ، حتى اولئك الذين تنسب اليهم . ومن جانب اخر، فسولجنتسين ـ كما يبدو للمتتبع آثاره وافعاله منذ سنوات ـ ليس مجازفا ، ولا ارعن ، وليس بكل ذلك القدر من المثالية . فهو رجل قد حسب حسبته ، من مبدأ الامر جيدا، واعد عدته ، وعندما جازف كان قد أمن ظهره قدر ما استطاع . وفي ظل الوفاق السوفياتي الاميركي، والانفتاح السوفياتي على الغرب ، فعل ما فعل ، وضرب ضربته ، وافلت الى الغرب الذي نشر اعماله ، واقام حوله ضجة كبرى ما بعدها ضجة . نعم جازف الرجل ، ما في ذلك شك ، وظهرت صورته في صحف الغرب محتضنا طفليه وفي عينيه نظرة خائفة ، لكنها مجازفة محسوبة اتت ثمارها . وهناك مثل انجليزي (لا بد ان هناك مثلا روسيا يقابله ، وسولجنتسين مولع بالامثال) يقول « من لم يجازف بشيء لا يفوز بشيء » ، وبالعربية هناك تلك الشطرة من الشعر : « ويفوز باللذات الغاتك اللهج » . ولا نقول ان الرجل ممثل او افاق . فهو مخلص تماما فيكل ما فعل (في حدود نظرته) ، لكنه ـ بغير شك ـ « شاطر وناصح » ، وهو ما لا ياخذه عليه احد ، لان المعركة التيخاضها لم تكن هينة .

ما خطبه سولجنتسين اذن ؟ اعتقادنا ـ ببساطة ـ انه رجل خاب امله ، وضاع وهمه ، فنفد صبره ، وانفجرت مراجل غضبه ، لان حكام بلده لا يرون الامور كما يراها هو . ولا ننسى ان وجود كاتب عظيم في بلد ما هو بمثابة وجود حكومة اخرى (لا مجرد معارضة) في ذلك البلد .

المسالة اذن خلاف عميق وجذري ، بين سولجنتسين وزعماء الاتحاد السوفياتي . فلنحاول ان نستوضح اوجه ذلك الخلافوابعاده.

« ان الكاتب قادر ـ بفضل حدسه ، ورؤيته الفريدة للعالم ـ على ان يكتشف ، مبكرا ، قبل غيره من البشر ، مختلف ادوار الحياة

---

(١٤) A . Solzhenitsyn : « Letter to Soviet Leaders » Index on Censovship publication , London 1974 P . 58

الاجتماعية واوجهها ،وهو يراها ،في معظم الاحيان ، من زاوية غير متوقعة . ذلك جوهر الموهبة . غير ان الموهبة تفرض على صاحبها التزامات معينة ، منها ان الكاتب ينبغي ان يوقف مجتمعه على كل ما توقفه عليه موهبته ، وتقع عليه بصيرته ، خاصة ما كان معتلا باعثا على القلق .. لقد كان الادب الروسي دائما ذا حساسية خاصة تجاه المعاناة الانسانية . ونحن احيانا يقال لنا ان مهمة الادب هي ان يجمّل المستقبل ويزوّقه . غير ان ذلك ضرب من التزييف ،وتبرير للكذب .. » (١٥) .

فالمنطلق الاساسي هنا التزام اخلاقي على الكاتب ، او الفنان الموهوب ، بان يكرس موهبته في خدمة مجتمعه ، وان يجعل من ابداعه نذيرا بما هو متربص من شرور .

ومن جانب اخر ، يقول سولجنتسين :« انا (في كتاباتي) احاول ان اشرح المسار البطيء لتاريخنا (الروسي) وابين اي تاريخ كان .. » (١٦) .

فعلى الكاتب ايضا ـ من خلال استقراء التاريخ كما يتناوله في اعماله ـ ان يستظهر المسار الذي يحتمل ان يتخذه ذلك التاريخ مستقبلا ، معززا الرؤية التي يقع عليها حدسا ، بذلك التنبؤ العلمي القائم على تحليل احداث التاريخ وتتبع مساره .

ويضيف سولجنتسين الى التزامات الكاتب التزاما اخر هو اقتراح الحلول لما يتنبأ به من مشكلات وكوارث مقبلة . في خطابه الى زعماء الاتحاد السوفياتي يقول :« .. اني اوجه اليكم هذا الخطاب لكي اوقفكم على رؤيتي للمستقبل ، وهي رؤية تبدو لي صائبة ،آملا ان اتمكن من اقناعكم رغم كل شيء ، ولكي اقترح عليكم ايضا ، بينما لا يزال هناك متسع من الوقت ، مخرجا ممكنا من المخاطر الرئيسية التي تواجه بلادنا خلال السنوات العشر او الثلاثين المقبلة » .(١٧).

تلك ، اذن ، المسؤوليات التي تضعها موهبة الفنان على كاهله : الابصار ، والتنبؤ ، والنذير ، واقتراح المخارج والحلول . وكلها مسؤوليات اخلاقية بالدرجة الاولى .

وتتضح لنا الاهمية الحيوية لدور الفن الصادر عن التزام اخلاقي ، في القرن العشرين « الذي تبين انه اشد قسوة من كل ما سبقه من قرون » ، اذا ما القينا بالا الى تعدد سلالم القيم في عالم اليوم وازدواج المعايير التي ينظر بها البشر في مختلف انحاءالعالم الى ما يجري في عالمهم ، تحت انوفهم ، او بعيدا عنهم . « فكل ما هو بعيد عنا ، ولا يتهددنا فيعقر دورنا ، ننظر اليه باعتباره مما يمكن احتماله ، مما ينبغي ان تطيقه النفس ، رغم الانين ، والتأوهات ، والصرخات المكتومة التي تترامى الى مسامعنا ، والارواح التي تزهق تحت سمعنا وبصرنا ، حتى وان كانت ارواح الملايين من الضحايا» (١٨).

وهذه المعايير المزدوجة ، هذا الشلل الاخلاقي ، والعجز عن فهم شقاء الاخرين والتعاطف مع تطلعاتهم الى الخلاص منه ، ما الذي سيقوّمها ، ومن الذي سيوحد عالمنا ؟ من الذي سيرأب صدعه ؟ « لانه طالما ظلت هناك ستة سلالم للقيم ، او حتى اربعة ، او حتى اثنان فقط ، لن يكون هناك ابدا عالم واحد ، وبشرية واحدة .. ولن يكون لنا بقاء معا على سطح هذا الكوكب .» (١٩) ما الذي سيصالح هذه السلالم المتضاربة من القيم ، وكيف ؟ ما الذي يمكن ان يخلق للبشرية

---

(١٥) « Solzhenitsyn : A Documentary Record » Penguin , London , 1970 , P . 38

(١٦) « خطاب الى زعماء الاتحاد السوفياتي » ، ص ٨ .

(١٧) نفس المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(١٨) « خطبة نوبل » ، ص ١٢ .

(١٩) نفس المرجع السابق ، ص ١٣ .

صيادون في شارع ضيق

رواية بقلم

جبرا ابراهيم جبرا

« صيادون في شارع ضيق » رواية من نوع آخر . فهي « رواية افكار وشخصيات » بالدرجة الاولى ، كما قال عنها المستشرق الانكليزي دنيس جونسن ديفز . ولكن الاهمية في « صيادون » متأتية من تصوير الشخصيات ومن تقديم الافكار والمواقف . والشيءالذي يجعل « صيادون » عملا ادبيا بارعا هو قدرة الكاتب على تكديس جميع هذه الشخصيات والافكاروالمواقف في بوتقة صغيرة وجعلها تتحرك في مختلف الاتجاهات ، رغم ان واحدا من هذه الشخصيات لايشبه الاخر شبها كاملا . اما كيف ينتقل الكاتب من فكرة الى اخرى من دون ما علاقة ظاهرة ، فذلك دليل اخر على براعته » .

صدر حديثا

الدكتور عبدالواحد لؤلؤة

نسقنا موحدا للتقييم تزن به الافعال الخيرة والافعال الشريرة ، وتقدر ما يطاق وما لا يطاق ، حتى يمكن للبشرية ان تضع لنفسها خطا صائبا يفصل بين هذا وذاك ؟ وما الذي يمكن ان يوجه غضبنا ضد ما هو فظيع بحق ، لا ضد ما هو قريب منا ومزعج فحسب ؟ اي شيء ذلك الذي يستطيع ان ينفذ بمثل ذلك الفهم المستنير انسانيا من خلال الحائط الفولاذي لخبراتنا المباشرة المحدودة ويخترق حجب تعصبنا ، وضيق افقنا ليحمل الى قلوبنا افراح واحزان غيرنا من البشر البعيدين عنا ؟ الدعاية ؟ القهر ؟ البرهان العملي ؟ كلا . كل هذه سبل مسدودة وعاجزة. الفن وحده ، الادب ، هو القادر على ذلك . هو القادر على التغلب على ضعف الانسان المتمثل في كونه غير قادر على التعلم الا من تجربته المباشرة ، والتعامي او العمى عن خبرات غيره . فالفن يوسع من وقت الانسان المحدود على الارض اذ يحمل من انسان لاخر الكل المركب لخبرات الغير ، بكل اعبائها ،والوانها، ومذاقها . فالفن يعيد خلق كل الخبرات التي يعيشها غيرنا من البشر ، ويكسوها لحما ، فتحيا ، حتى ياخذها اليه كل انسان، ويجعلها خبراته هو ايضا . ولا تقتصر هذه العملية الحيوية على الاجيال المتعايشة وحدها ، بل تمتد الى الاجيال المتعاقبة من البشر، بحيث يضيف الفن الى دوره كناشر لخبرات البشر ومعمم لها ، دورا لا يقل اهمية ، هو دور الذاكرة الحية للامم ، فيحافظ على تاريخها بشكل لا يسمح بتشويهه او الاساءة اليه . والفن ـ فوق هذا وذاك ـ قادر على تخطي عوائق اللغة ، والعرف ، والتقاليد ، والنظم الاجتماعية ، التي تفصل بين الامم ، فيخلق روابط حية بينها ، ويغني كل امة بخبرات غيرها ، تماما كما يفعل على مستوى الافراد ، وبذا يتيح للامم ان تتعلم من اخطاء بعضها البعض فلا تكررها (٢٠) . فالفن منقذ ومخلص ، لا على مستوى الافراد فحسب ، بل وعلى مستوى الامم ، والبشرية جمعاء . ومن الواضح انه لكي يقوم الفن بذلك الدور ينبغي له ان يقوم على الصدق وحده ، ويجافي الكذب والتزييف ، ويصدر عن القيم الاخلاقية التي لا تستقيم للبشر حياة بدونها ، وفي مقدمتها العدل .

ولكن ، العدل والاخلاق لمن ؟

من كل ما احاط ويحيط به : ثماني سنوات في المعتقل ، ثلاث سنوات في المنفى ، عشر سنوات من الصراع بعد ظهور « يوم في حياة ايفان دينزوفيتش » ، جائزة نوبل . ثم الصدام الاخير ، والطرد من الاتحاد السوفياتي ، وحكم بمنفى لا يعلم متى يعود منه الى وطنه ، من كل ذلك ، ومن مواضع باعينها في اعماله يتفوق فيها على نفسه ويجد له مستقرا بحق في صحبة الكبار في عالم الادب من مواطنيه، وان بقي دائما في ظل سلفه العظيم تولستوي .. من كل ذلك قد يبدو سولجنتسين ، خاصة بعد الضجة الكبرى التي اثيرت في الغرب والشرق حوله ، كما لو كان من اولئك الذين تذكر العصور باسمائهم ولا يذكرون هم بها ، او اولئك الذين تنسب الامم اليهم ولا يميزون بنسبهم اليها . وحتى نجد لنا منفذا الى ما قد يكون تقييما صائبا لامكانية ذلك ، وامكانيات الرجل ذاته ، نصم اسماعنا قليلا عن الضجيج العظيم المثار حوله ، ونلتفت باعيننا قليلا عن الاضواء المسلطة عليه ، ونعود الى المحك المامون الوحيد الذي يركن اليه .. الى منطلقات فكره ، المواقف التي يصدر عنها ، وما يعبر عنه في ابداعه . اما الصخب العظيم (ان له ، وان عليه) فليس الا هتاف اناس يتظاهرون خارج النافذة .

في خطابه الى زعماء الاتحاد السوفياتي يقول سولجنتسين :« انا اتمنى الخير لكل الشعوب ، وكلما كانت تلك الشعوب اقرب الينا، واكثر اعتمادا علينا ، كانت تمنياتي لها بالخير اشد حرارة . غير ان مصير الشعوب الروسية والاوكرانية هو الذي يشغلني فوق كل شيء . والمثل عندنا يقول : « اعظم نفعك يكون حيث مسقط رأسك ». وهناك سبب اعمق ايضا : العذابات التي ليس لها مثيل التي عاناها شعبنا » (٢١). اي كما نقول نحن :« الاقربون اولى بالمعروف ». وهذا كلام واقعي وجميل ، ولا مأخذ عليه ، خاصة اذا ما تذكرنا ان الكاتب امرؤ مهتم بالعدل ، والقيم الاخلاقية الباقية ، وخير البشر ، ومنافح عن الحرية ، وتذكرنا ايضا انه كاتب يقارن نفسه بالبيرگامي.

ولكن لنصغ اليه وهو يقول في حديث صحفي ادلى به لمجلة ادبية تشيكية ، ونشر عام ١٩٦٧ : « لقد كنت مهتما بالمشكلات الاخلاقية للمجتمعات المتحضرة العليا ، رأسمالية كانت ام اشتراكية » (٢٢). ولنصغ اليه ايضا وهو يقول في خطابه الشهير الى زعماء بلاده : « منذا الذي يمكن ان يتردد في التوقف عن تمويل ثوار اميركا الجنوبية من اجل الانحراف الى تحرير نسائنا من هذه العبودية (عبودية العمل اليدوي) ؟ » (٢٣) وهو يقول ذلك في خطابه (٥ ـ ٩ ـ ١٩٧٣) عن شيلي ، وغير شيلي من بلدان تلك القارة المنكوبة ، ويأخذ على حكام بلاده انهم يساعدون ثوارها ، وهو المتحدث عن الحرية ، وعذابات البشر ، ولمَ ؟ لان احساسه الديني ، ربما قد اوذي واستنفرت حميته لمرأى المرأة الروسية وهي تعمل في المصانع والحقول وشوارع المدن . ومرة اخرى :« ان حكاية تبنينا لماوتسي تونج بدلا من جار مسالم كتشانج تشاي تشيك ، ومساعدتنا له على دخول سباق التسلح النووي ، من حكايات التاريخ القريب ، ويعرفها الكافة. والان ، الا ترانا سائرين الى غلطة مماثلة مع العرب ايضا ؟ »(٢٤) فالرجل (وقد قلنا ان وجود كاتب عظيم في بلد ما يعني وجود حكومة اخرى ، منافسة ، في ذلك البلد) يشدد النكير عليهم لانهم يساعدون العرب ويسلحونهم ، كما ساعد من سبقوهم في الحكم ماوتسي تونج وسلحوه . ورغم ان التاريخ القريب يوقفنا على ان احدا في روسيا لم يكن مدلها بماوتسي تونج ، وان الذي تلقى المساعدة فعلا كان الشعب الصيني ، فان المقارنة هنا لا تستقيم . لان سولجنتسين اذ يأخذ على بلاده تسليح ماوتسي تونج ومساعدته على دخول سباق التسلح النووي ، يفعل ذلك على اساس انه يعتبر ان الصين احد خطرين اساسيين يتهددان الاتحاد السوفيتي خلال السنوات العشر او الثلاثين القادمة . فاين وجه الشبه الذي يمكن ان يجعل مساعدة الاتحاد السوفيتي للعرب غلطة مماثلة لمساعدتهم للصين ؟ اتراه يخشى على الاتحاد السوفيتي من العرب المساكين المتأخرين ، ام انه يأسف لان بلاده ، مرة اخرى ، لم تقف بجانب جار مسالم وديع؟ ولعلنا لا ننسى ان الورقة الرابحة والحاسمة في مقامرة سولجنتسين مع السلطة في بلاده كانت ، منذ البداية ، نشر اعماله في الغرب ، والحصول على مؤازرة كاملة ومدوية من اجهزة الاعلام الغربية .

غير اننا نظلم الرجل (وعقولنا ايضا) اذا اوحينا انه كتب ذلك وعينه على من يتحكمون في دور النشر واجهزة الاعلام في الغرب وحسب ، فالمسالة لديه ذات جذور ابعد واعمق ، اذ انها تشكل جزءا من موقفه الفكري ككل ، وهو موقف يبدو ، مما تشهد به كتاباته حتى الان ، ان له وجهين اساسيين : وجه محافظ يعادي « التطرف » في كل اشكاله ، والخروج على الاصول المرعية ، والقانون والنظام (ولقد

---

(٢٠) ارجع الى « خطبة نوبل » : ص ص ١٤ و ١٥ .

(٢١) « رسالة الى زعماء الاتحاد السوفياتي »،ص ٧

(٢٢) سجل وثائقي ـ دار بيجوين ، ص ٣٧ .

(٢٣) « رسالة ..» ص ٤٠ .

(٢٤) « رسالة .. » ص ١٢ .

يبدو ذلك غريبا من كاتب يناصب السلطة العداء ، لكنه لن يبدو كذلك متى ادركنا لماذا يعاديها) ، ووجه اخر قومي ، يعادي العالمية ، وكل ما تنطوي عليه .

واما الوجه الاول فيسفر واضحا محدد القسمات في اقوال كهذه: « ان النوازع البدائية القديمة ما زالت حية بيننا ، تفعل فعلها في تمزيق عالمنا وبث الفرقة بين اهله . تلك النوازع هي : الجشع ، والحسد ، والفجور ، واضمار الشر المتبادل ، وان كانت قد باتت تتخفى الان وراء اقنعة حديثة ، وتتسمى باسماء مستعارة « كالصراع الطبقي » ، و « الصراع العنصري » ، و « نضال الجماهير » ، و « نضال الحركة العمالية المنظمة » (!) » (٢٥) فحتى التحركات الدستورية المهذبة المخففة مكبوحة الجماح التي تقوم بها نقابات العمال في بريطانيا مثلا ، تندرج في قاموس سولجنتسين تحت اسم التطرف والنوازع البدائية المدمرة (٢٦) . ولا غرو ، فهو يعتبر سرقة اوراق البنتاجون ونشرها على الملأ جريمة (٢٧) وكيف لا يعتبرها كذلك وهو القائل : « طبعا ، فالحرية قيمة اخلاقية ، لكنها لا تظل كذلك الا اذا ظلت داخل حدود معينة تلزمها فلا تتخطاها ، لانها ، وراء تلك الحدود، تتدهور لتصبح تحللا وفسقا . و « النظام » ليس غير اخلاقي ، اذا كان يعني نظاما هادئا مستقرا . » (٢٨) ولهذا فانه ليس من الغريب ان ينعي على بعض الديموقراطيات المحترمة عجزها في مواجهة حفنة من الارهابيين الاشقياء (٢٩) . ولماذا يعاني عالمنا من كل هذه الاوبئة ؟ لان ذلك الرفض البدائي لقبول المصالحة والحل الوسط قد تلبث في بنيتنا الفكرية وعدتنا النفسية ، ورفعناه الى مستوى المبادىء والفضائل وهو المتسبب في موت ملايين الضحايا المرة بعد المرة في الحروب وغيرها من اعمال العنف .. فالعنف ، الذي يتزايد عجز القانون عن التحكم فيه ، من يوم الى يوم ، يخطو اليوم بجرأة متزايدة، مزهوا ، منتصرا ، على مسرح العالم اجمع ، غير عابىء بان عمقه قد انكشف المرة بعد المرة على طول التاريخ كله . (٣٠) ولا يخطر لسولجنتسين ببال ، اذ يقول هذا القول ، وهو المتحدث عن العدل ابدا ، ان ذلك العنف كله قد يكون فجره ونفخ في جذوته الظلم والطغيان والتجبر . والحقيقة ان المرء اذ يصغي اليه يحس كما لو كان قد القى بسمعه الى سيد وقور ومنتظم اخر من « سلالة البقالين » التي طالما ازرى به المثقفون الفرنسيون وهم يهزأون بالبورجوازية الصغيرة وقيمها . والا فباي ضمير وباي عقل يقول الرجل : « دعوا ذلك للصينيين ليهنأوا به بعض الوقت ! دعوهم يحملون عبء ذلك الجوال الضخم من الالتزامات الدولية التي لا وفاء بها . دعوهم يتوجعون ويلهثون وهم يعلمون البشرية ، ويدفعون ثمن اقتصادياتهم السفيهة (مليون باكمله يدفع لكوبا كل يوم) ودعوهم يؤيدون الارهابيين ومقاتلي العصابات في النصف الجنوبي من الكرة الارضية « اذا ارادوا!» (٣١) « ودعونا نترك العرب لمصيرهم . فلديهم الاسلام ، وسوف يتدبرون امورهم بانفسهم . ودعونا نترك اميركا الجنوبية لمصيرها ، فليس هناك من يهدد بالاستيلاء عليها (!) . ودعونا نترك افريقيا لتكتشف بنفسها كيف يمكنها ان تخطو خطواتها الاولى الى الحضارة ومفهوم الدولة ، متمنين لها الا تقع في الاخطاء التي وقعنا فيها فتكرر طموح « التقدم الذي لا ينقطع » .. (٣٢) وهو يقول ذلك رغم انه مدرك تماما أن « المجاعة مستشرية في مناطق كثيرة من العالم ، وسوف تستشري بضراوة افظع نتيجة لزيادة عدد السكان ، وندرة الارض ، ومشكلات الخروج من عصر الاستعمار . » (٣٣) ونحن نقول ذلك على سبيل حسن الظن وافتراض النية الطيبة ، لانه من الممكن ايضا ـ قياسا على كل ما يقول ـ ان نفترض انه يدعو الى ترك كل تلك الشعوب في اسيا وافريقيا واميركا الجنوبية لمصيرها لانه مدرك تماما ان المجاعة مستشرية ، وان العالم يعاني من الانفجار السكاني ، ومن ندرة الارض، وان المتخلفين الجياع يعانون فوق ذلك كله من مشكلات الخروج من عصر الاستعمار .

ومرة اخرى ، حتى لا نظلم الرجل ، فنتهمه بالتعصب ضد المتاخرين لانهم كذلك ، يحسن بنا ان نذكر ان من بين ما يأخذه على زعماء بلاده مشروعاتهم لاستكشاف الفضاء ، ويقول لهم « دعونا نكف عن سماع اي شيء عن الفضاء الخارجي والكون » (٣٤) فهو رجل واقعي يؤمن بان عصفورا في اليد خير من عشرة على الشجرة كما يقال . والعصفور الذي في اليد ، في مشروعه لانقاذ روسيا من الدمار هو سيبريا والشمال الذي اهمل حتى الان ، فوق ان الفضاء وغزوه جزء من التقدم الذي ينبغي ايقافه ، ومطالبته الخاصة بالكف عن مساعدة الشعوب المتخلفة وتركها لمصيرها ، مثل مطالبته بايقاف التقدم وبحوث الفضاء ، مسالة مبدا ، واقتناع عقلي : « ان شعبنا لن يعيش في الفضاء ، او في جنوب شرقي اسيا ، او اميركا اللاتينية ، فسيبريا، والمناطق الشمالية هي املنا ، وذخيرتنا للمستقبل . » (٣٥) ذلك رغم انه غير غافل عن مشكلة تزايد السكان في عالم اليوم بشكل يهدد بانفجار مخيف ، كما انه غير غافل عن مشكلة تناقص المخزون المعروف حتى الان من الثروات الطبيعية في باطن الارض . ولما كان ليس بغافل عن هذه المشكلة او تلك فما من شك في انه قد خطر له ان اي جهد تبذله دولة متقدمة صناعية كالاتحاد السوفيتي لمساعدة شعوب العالم المتخلفة على محاولة الخروج من مأزقها الانساني المتعدد الوجوه ـ بصرف النظر عن كونه من قبيل العلاقات العامة الايديولوجية ام لا ـ قد يساعد ، ولو لبعض الوقت ، على تأجيل ثورة عالمية لا يمكن التنبوء بمداها او ابعادها ، غير انه من الممكن ، لكل ذي عينين (وسولجنتسين له عينان من الواضح انهما مفتوحتان على سعتهما) ، التنبؤ بشيء واحد فيما يخصها ، وهو انها ستنفجر في نصف الكرة الجنوبي الذي يتحدث عنه ، وستنفجر في وجه الشمال الغني بصرف النظر عمن يكون «الطيب»، شمالا ، ومن يكون « الخبيث » . ولا يدعي احد ان الاتحاد السوفيتي، منذ نشط في مجال العلاقات الخارجية ، تعاون مع من تعاون معه من الشعوب المتاخرة الفقيرة لانه يخشاها او يهاب ثورتها القادمة . بل قد يوجد من يقول ان الاتحاد السوفيتي كان منفذا لمعتقداته الايديولوجية (كما يقول سولجنتسين) عندما ساعد تلك الشعوب ، وكان داخلا في صراع قوي مع الغرب ، تحول في ظل الوفاق الى تنافس ، وكان بحكم صورته التقدمية ـ ناجحا في توجيه نقمة الفقراء الجياع في الجنوب الى الاغنياء الغربيين وحدهم .

وبالمثل ، ما دام ليس بغافل عن ان « اثمن ما تمتلكه كل الشعوب من اصول ، اليوم ، هو الارض : الارض كمساحات مفتوحة للاستيطان .. الارض كعباءة تكسو مواردنا الطبيعية المدفونة في اعماقها، والارض

---

(٢٥) « خطبة نوبل » ص ص ١٧ و ١٨ .

(٢٦) « رسالة .. » ، ص ٥١ .

(٢٧ ـ ٢٩) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٣٠) « خطبة .. » ص ١٨ .

(٣١) « رسالة .. » ص ١٨ .

(٣٢) « رسالة .. » ص ٢٨ .

(٣٣) « رسالة .. » ص ٣٣ .

(٣٤) « رسالة .. » ص ٥٥ .

(٣٥) « رسالة .. » ص ٢٩ .

كتربة خصبة ... » (٣٦) ، وما دام يعلم علم اليقين انه حتى « مع حسبان كل ما هو متاح من الارض على سطح هذا الكوكب ككل ، ومع حسبان اية زيادة (محتملة او ممكنة) في خصوبة التربة .. فان هذه وتلك ستكون قد استهلكت (استهلكتها الزيادة المطردة في عدد سكان الكوكب ككل) عند حلول سنة ٢٠٠٠ (اي بعد ٢٦ سنة من الان) .. وحتى مع افتراض مضاعفة الانتاج الزراعي ، فان اي زيادة في خصوبة الارض بالنسبة للكوكب ككل سوف تكون قد استهلكت عند حلول سنة ٢٠٣٠ .. » (٣٧) ، ما دام يعلم كل ذلك وليس بغافل عنه ، ففيم يقيم الدنيا ويقعدها حول تعمير الشمال الشرقي وسيبريا وهو يعلم ان ذلك ـ بحسابانه هو ـ ليس حل المشكلة (مشكلة تزايد السكان ، واستهلاك المتاح من الارض ، واستهلاك خصوبة الارض بالنسبة للكوكب ككل) وليس منقذا من المجاعة المحتومة المقبلة والتزاحم الذي لا يطاق والذي لا مهرب منه ، وفيم ايضا اخذه على زعماء بلاده اهتمامهم بغزو الفضاء الخارجي وقد يكون في غزو الفضاء حل لمشكلة البشر المقبلة ؟ غير اننا ننسى فيما يبدو ان سولجنتسين بدأ اصلا من الاهتمام بالمشكلات الاخلاقية العليا الخاصة بالمجتمعات المتحضرة العليا ، رأسمالية كانت ام اشتراكية ، وله مسرحية معروفة تؤكد ذلك (٣٨) وهو يتحمس لها مرة ويقول انها من خيرة اعماله ، ويتنكر لها مرة ويقول انه لا يعتقد انها مسرحية جيدة ، فهو موزع الضمير بشانها فيما يبدو . كما اننا ننسى أيضا ان سولجنتسين كاتب وطني ، قومي النظرة ، ومسيحي مؤمن بربه وبالعالم الاخر الذي يذهب اليه الفقراء ليعوضهم الله خيرا عن كل ما ذاقوه من بلايا ومحن ومجاعات في هذا العالم الموقوت العابر ، ولهذا فانه يقول لحكام بلاده : « اننا لا يجب الا ننساق وراء اعتبارات العملقة السياسية ، ولا يجب ان نشغل انفسنا بمصائر انصاف الكرة الاخرى : ذلك شيء يجب ان نتخلى عنه الى الابد ، لان تلك فقاعة من المحتم ان تنفجر ـ وانصاف الكرة الاخرى ، والمحيطات الدافئة سوف تنمو بغير عون منا ، بطريقتها الخاصة على اية حال .. » (٣٩) وسولجنتسين لا يقول لنا اية فقاعة تلك التي من المحتم ان تنفجر، لكنه يقول لنا ما يجب على « انصاف الكرة الاخرى والمحيطات الدافئة » ان تفعله : « ان « العالم الثالث » ، الذي لم يبدأ في السير بعد على الدرب المهلكة التي سارت عليها الحضارة الغربية ، لا سبيل الى انقاذه الا بالتكنولوجيا ذات النطاق الصغير التي تتطلب زيادة العمل اليدوي لا تقليله ، وتستخدم ابسط الالات ، وتعتمد اعتمادا كاملا على المواد المحلية . » (٤٠) وبذلك يستعد العالم الثالث لقدم سنة ٢٠٠٠ او سنة ٢٠٣٠ ، ويواجه المجاعة المقبلة ، والانفجار السكاني، واستنفاد الموارد الطبيعية ، واستهلاك المتاح من الارض ، واستهلاك خصوبة التربة .

لكن ذلك كله كلام في الهواء كما يقولون ، فسولجنتسين ـ في حقيقة الامر ـ لا يعنيه عالم ثالث او عالم رابع ، ولا يهمه ان تنمو بلدان المحيطات الدافئة وانصاف الكرة الاخرى او لا تنمو او تموت . فاهتمامه ـ بكل قيمه الاخلاقية ، وانشغاله بالعدل وسيادة القانون واستتباب الامن والنظام ـ منصرف الى الحضارات العليا . فهو ـ انطلاقا من معطيات الحاسبات (العقول) الاليكترونية ، كما يقول ، يتنبأ « بيوم » قيامة يحل فيه الدمار على نطاق واسع بسكان هذه الارض ، وهو « يوم » قيامة آت لا ريب فيه « خلال العقود الاولى من القرن الحادي والعشرين ، ان لم يكن لاستنفاد موارد الارض ، فبسبب دمار البيئة .. » (٤١) ولنسمع له جيدا الان : « غير انه من المحتمل جدا في واقع الامر ، بل واكثر من المحتمل ، ان الحضارة الغربية لن تموت (في « يوم » القيامة ذاك (*) لانها حضارة ديناميكية شديدة القدرة على الابتكار بحيث ستتمكن من الخروج من تلك الازمة الداهمة سالمة ، واذ ذاك ستحطم كل مفاهيمها الخاطئة القديمة ، ولن تكاد تنقضي بضعة سنوات الا وتكون قد اخذت في اعادة التعمير الضرورية لكل ما ضرب . اما العالم الثالث فانه سيكون قد القى بالا الى النذر في الوقت المناسب ولم يأخذ الطريق التي اخذها الغرب على الاطلاق . وذلك ما زال امرا مستطاعا تماما بالنسبة لمعظم البلدان الافريقية ، والعديد من البلدان الاسيوية .. » (٤٢) ولا يقول لنا سولجنتسين كيف سيستطيع العالم الثالث ان يخرج من تلك الازمة الداهمة التي لن تخرج منها الحضارة الغربية الا بجلد اسنانها كما يقولون . وقد يوجد من يقول : طبعا . فالحضارة الغربية ستدهمها تلك الازمة لانها اختارت درب التقدم الذي لا يتوقف والتكنولوجيا على نطاق واسع . اما العالم الثالث فلن تدهمه الازمة لانه لن يسير على درب التقدم ولن يأخذ بالتكنولوجيا الا على نطاق محدود صغير . وذلك ما يبدو ايضا ان ظاهر قول سولجنتسين يريد أن يوحي به . لكنه قال من قبل ان الموارد ، والارض ، والخصوبة ، والانتاجية الزراعية ، ستستهلك بالنسبة للكوكب ككل . وقال بعد ذلك ان حسابات « يوم » القيامة تقوم على خمسة عوامل اساسية : السكان ، والموارد الطبيعية ، والانتاج الزراعي ، والصناعة ، وتلوث البيئة (٤٣) . فمن الذي سيقف بين العالم الثالث وبين ما سوف تتسبب فيه هذه العوامل مجتمعة لسكان هذا الكوكب ككل ؟ اما السكان ، فالعالم الثالث اكثر عوالم الله سكانا واشدها ضراوة في انتاج النسل . واما الموارد الطبيعية فقد لا يستنفدها اهل العالم الثالث ـ خاصة متى اخذوا بنصيحة سولجنتسين وتجنبوا درب التقدم ـ ولكن من الذي يضمن لهم الا يأخذها اهل الحضارة الغربية الديناميكية شديدة القدرة على الابتكار ، اما لمواصلة التقدم ، واما لاعادة البناء وتعمير ما ضرب بعد الازمة ؟ وليقل لنا سولجنتسين ، وهو القائل ان الذي يهمه مصير الشعوب الروسية والاوكرانية ماذا يمكن ان يكون موقفه الاخلاقي العادل ان تطلب الحرص على مصير تلك الشعوب الحصول على ما بأرض شعب من شعوب العالم الثالث من وقود او مواد خام ؟ لتعمير سيبريا والشمال الشرقي مثلا ؟ ونفس القول ينسحب على انتاج الطعام . فارض العالم الثالث التي قد تكون مزدحمة بالسكان ، واطئة الخصوبة ، لكنها لم يلحقها تلوث البيئة نظرا للاحجام عن الافراط في « التقدم » ، هل سيحفظها لاهل ذلك العالم من سطو المتقدمين الاقوياء عليها ابتعاد عالمهم عن ترسم خطى حضارة الاقوياء واخذه بالتكنولوجيا على نطاق محدود صغير ؟

* * *

ان الكسندر سولجنتسين ليس ايا كان . فهو من كبار كتاب العصر ، واشهرهم . وهو رجل تحلى بقدر من الشجاعة والايمان نادر

---

(٣٦) « رسالة .. » ص ٢٧ .

(٣٧) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٣٨) عنوانها « The Tenderfoot and the Tramp » وستالين من بين شخصياتها .

(٣٩) « رسالة .. » ص ص ٥٤/٥٥ .

(٤٠) « رسالة .. » ص ٢٢ .

(٤١) « رسالة .. » ص ص ٢٣/٢٤ .

(*) لفظة يوم نستخدمها هنا مجازا . فكل ذلك لا يحدث بين يوم وليلة ، كما هو واضح .

(٤٢) « رسالة .. » ص ٢٤ .

(٤٣) « رسالة .. » ص ٢٣ .

د. عبد اللطيف حسن

الطيور تبكي عند نهر الخابور

لو مرة سيوفكم كانت على الاعداء
لو مرة خزاعه
اثخنت الجراح في عدوها واظهرت شجاعه
هذا الذي دماؤه جرت على الرمال
شمسكم الكبيره
وهو ، اذا ذكرتم الليالي السود الحبالى ،
قمرُ العشيره
بعاورته منكم الخناجر
صببتم نهرا من الحقد عليه ..،
فوق انهار من الدماء
تركتموه جثة .. اشلاء
الشمس فوقه لظى
الرمل تحته لظى
ووجهه يشهق للسماء

* * *

وحامت النسور فوق لحمه عصائب
في اثرها عصائب
توزعته مزقا حواصل النسور
وغاب في احشائها .. كأنه ما كان
نسرا يشق جانحاه عارض السماء

وصارما يزلزل الارض اذا صال على الاعداء
فلتشهد الصحراء ان مات بها انسان

* * *

لو كان حيا لانتشت بسيفه « سيناء »
او بيرق من دمه رف على « الجولان »
اذن لكانت قصة من قصص البطوله
ووجه تاريخ اضاء ساحة الرجوله
لكنه .. لكنه .. اواه ...
بكته في غربته الاعراب في البوادي
بكت عليه السحب الوفيه
بكته — اذ خلت ظهورها — عيون الخيل
بكت عليه جزعا صوارم المنيه
بكته حتى اعين الطيور
بكاه حتى شجر الخابور
وانتم .. لا احد بكاه
لا احد رثاه
عار على خزاعه
عار على نزار
يموت في الغربة موتاهم بلا قبر ولا مزار !

لندن

المثال مكنه من الوقوف في وجه حكام احدى القوتين الاعظم في عالم اليوم معارضا ومناقضا . وهو حاصل على جائزة نوبل . وهو مؤمن فعلا بمجموعة من القيم الاخلاقية لا شك في اهميتها . كما انه كاتب تبناه العالم العربي كله — لا لمجرد معارضته للنظام السوفيتي — بل لذلك ولانه — في حقيقة الامر — يجسد بفكره وانجاهاته المضمون الفكري الاخلاقي الغربي الان وغدا بأفضل مما يعبر عنه او يجسده اشهر كتاب الغرب المعاصرين .

ولقد اثارت اراء سولجنتسين التي ركزها واجملها في رسالته الجريئة الى زعماء الاتحاد السوفيتي عاصفة من النقد والنقاش والمناظرة بين اقرب اصدقائه وزملائه من المنشقين السوفيت انفسهم ، كعالم الفيزياء زخاروف، والمؤرخ ميدفيديت الذي سبق ان تصدى سولجنتسين للدفاع عنه ، وقد اتهماه كلاهما بالتعصب ، والنظرة القومية الضيقة، وجاءت ردود من ردوا عليه — فيما يخص مشكلتنا بالذات — كاشفة اكثر . ولهذا فان الرجل ، واراءه ، واعماله ، ومعارضيه ، واراء معارضيه ووجهات نظرهم ، تستحق منا وقفة دراسة وتحليل اخرى طويلة . فالمسالة فيما يخصنا اهم بكثير من مجرد قضية ادبية ، او جمالية ، او فلسفية ، واعمق من مجرد مشكلة اخلاقية .

لنـدن